من أقاصيص الأولين

عرض : د. محمد أحمد خلف الله

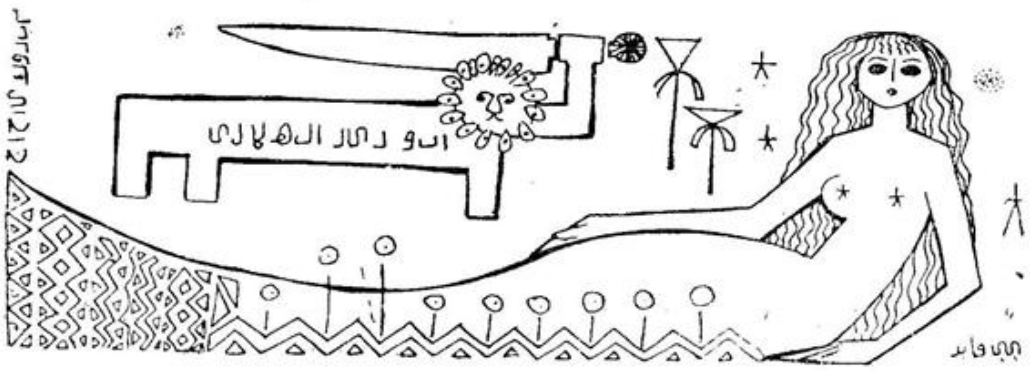

سمع يزيد بن معاوية بن أبى سفيان بجمال زينب بنت اسحاق زوج عبد الله بن سلام القرشى ـ وكانت من أجمل النساء فى وقتها ، وأحسنهن أدبا ، وأكثرهن مالا ـ ففتن بها . فلما عيل صبره ذكر ذلك لبعض خاصة أبيه ـ واسمه رفيق ـ فذكر ذلك لمعاوية ، وقال له : ان يزيد قد ضاق ذرعه بها .

فبعث معاوية الى يزيد ، فاستفسره عن أمره ! فبث له شأنه .

فقال : مهلا يا يزيد .

فقال له : علام تأمرنى بالمهل وقد انقطع الأمل ؟

فقال له معاوية : فأين مروءتك وحجاك وتقاك ؟

فقال : قد عيل الصبر ، ولو كان أحد ينتفع فيما يبتلى به من الهوى بتقاه ، أو يدفع القضاء بحجاه ، لكان أولى الناس به داود حين ابتلى به .

فقال معاوية : اكتم يا بنى أمرك فان البوح به غير نافعك ، والله بالغ أمره منك ، ولا بد مما هو كائن .

وأخذ معاوية فى الاحتيال فى تبليغ يزيد مناه ، فكتب الى زوجها عبد الله بن سلام ـ وكان قد استعمله على العراق : أن أقبل حين تنظر كتابى لأمر فيه حظك ان شاء الله تعالى فلا تتأخر عنه .

فأخذ السير وقدم ، فأنزله معاوية منزلا كان قد هيىء له .

وكان عند معاوية يومئذ بالشام أبو هريرة وأبو الدرداء • فقال لهما معاوية : ان الله قد قسم بين عباده قسما ، ووهبهم نعما أوجب عليهم فيها شكره ، وحتم عليهم حفظها ، فجبانى منها عزوجل بأتم الشرف وأفضل الذكر ، وأوسع على الرزق ، وجعلنى راعى خلقه وأمينه فى بلاده ، والحاكم فى أمر عباده، ليبلونى أأشكر أم أكفر • وأول ما ينبغى للمرء أن يتفقد وينظر من استرعاه الله أمره ، ومن لا غنى به عنه •

وقد بلغت لى ابنة أريد زواجها والنظر فى اختيار من يباعلها ، لعل من يكون بعدى يقتدى فيه بهديى ، ويتبع فيه أثرى ، فانه قد يلى هذا الملك بعدى من يغلب عليه الشيطان ، ويحمله على تعضيل البنات ، فلا يرون لها كفئا ولا نظيرا • وقد رضيت لها ابن سلام القرشى ، لدينه وشرفه ، وفضله ومروءته وأدبه •

فقالا له : ــ ان أولى الناس برعاية نعم الله وشكرها ، وطلب مرضاته فيما اختصه ، لأنت •

فقال لهما معاوية : ــ فاذكرا له ذلك عنى ــ وقد كنت جعلت لها فى نفسى شورى ، غير أنى أرجو ألا تخرج من رأيى ان شاء الله •

فخرجا من عنده ، وأتيا عبد الله بن سلام ، وذكرا له القصة •

ثم دخل معاوية على ابنته ، وقال لها : ــ اذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة ، فعرضا عليك أمر عبد الله بن سلام ، وحضاك على المسارعة الى اتباع رأيى فيه ، فقولى لهما : ــ انه كفء كريم ، وقريب حميم ، غير أن تحته زينب بنت اسحاق ، وأخاف أن يعرض لى من الغيرة ما يعرض للنساء ، فأتناول منه ما يسخط الله تعالى فيه ، فيعذبنى عليه ، ولست بفاعلة حتى يفارقها •

فلما اجتمع أبو هريرة وأبو الدرداء بعبد الله ، وأعلماه بقول معاوية ، ردهما اليه يخطبان له منه ، فأتياه ، فقال : ــ قد علمتما رضائى به وحرصى عليه ، وكنت قد أعلمتكما الذى جعلت لها فى نفسها من الشورى ، فادخلا عليها ، وأعرضا عليها الذى رأيت لها •

فدخلا عليها ، وأعلماها ، فقالت لهما ما قاله معاوية لها ، فرجعا الى ابن سلام ، وأعلماه بما قالته •

فلما ظن أنه لا يمنعها منه الا فراق زينب أشهدهما بطلاقها ، وأعادهما الى ابنة معاوية •

فأتيا معاوية ، وأعلماه بما كان من فراق عبد الله زوجته ، رغبة فى الاتصال بابنته • فاظهر معاوية كراهة فعله ، وفراقه لزينب ، وقال : ــ ما استحسنت له طلاق امرأته ، ولا أحببته ، فانصرفا فى عافية ، ثم عودا اليها ، وخذا رضاها •

فقاما ثم عادا اليه ، فأهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن رضاها ، وقال : ــ لم يكن لى أن أكرهها ، وقد جعلت لها الشورى فى نفسها •

فدخلا عليها فأعلماها بطلاق عبد الله بن سلام امرأته ليسرها ، وذكرا من فضله وكمال مروءته وكرم محتده • فقالت لهما : ــ انه فى قريش لرفيع القدر ، وقد تعرفان أن الأناة فى الأمور أرفق لما يخاف من المحذور ، وانى سائلة عنه حتى أعرف دخلة أمره ، وأعلمكما بالذى يزينه الله لى ، ولا قوة الا بالله •

فقالا : ــ وفقك الله ، وخار لك ، وانصرفا عنها ، وأعلما عبد الله بقولها فأنشد :

فان يك صدر هذا اليوم لى ... فان غدا لناظره قريب

وتحدث الناس بما كان من طلاق عبد الله زينب ، وخطبته ابنة معاوية ، ولاموه على مبادرته بالطلاق قبل احكام أمره وابرامه •

ثم استحث عبد الله أبا هريرة وأبا الدرداء ، فأتيـــاها وقالا لها : ـ اصنعي ما أنت صـــانعة ، واستخيري الله فانه يهدى من استهداه ٠

فقالت : ـ أرجو أن يكون الله قد خار لى ، وقد استبرأت أمره ، وسألت عنه ، فوجدته غـير ملائم ولا موافق لمـا أريد لنفسى ٠ ولقـد اختلف من استشرته فيه ، فمنهم النـــاهى عنه ، ومنهم الآمر به ، واختلافهم أول ما كرهت ٠

فلما بلغاه كلامها علم أنه مخدوع ، وقال : ـ ليس لأمر الله راد ، ولا لمـا لا بد منه صاد ٠ فان المرء وان كمل حلمه ، واجتمع له عقله ، واستد رأيه ، ليس بدافع عن نفسه قدرا برأى ولا كيد ، ولعل ماسروا به ، واستجذلوا له ، لا يدوم لهم سروره ، ولا يصرف عنهم محذوره ٠

وذاع أمره ، وفشا فى الناس ٠ وقالوا : ـ خدعه معاوية حتى طلق امرأته ، وانما أرادها لابنه ، وقبحوا فعله ٠

فتمت مكيدته تلك ، لكن المقادير أتت بخلاف تدبيره ٠ وذلك أنه لمـا انقضت أقراء زينب ، وجه معاوية أبا الدرداء الى العراق ، خاطبا لها على ابنه يزيد ، فخرج حتى قدم الكوفة ، وبها يومئذ الحسين ابن على رضى الله عنهما ، فبدأ أبو الدرداء بزيارته ، فسلم عليه الحسين ، وسأله عن سبب مقدمه ٠ فقال : ـ

وجهنى معاوية خاطبا على ابنه يزيد زينب بنت اسحاق ، فقال له الحسين : ـ

لقد كنت أردت نكاحها ، وقصدت الارسال اليها اذا انقضت أقراؤها ، فلم يمنعنى من ذلك الا تخير مثلك ، فقد أتى الله بك ، فاخطب ـ رحمك الله ـ على وعليه ، لتتخير من اختاره الله لها ، وهى أمانة فى عنقك حتى تؤديها اليها ، وأعطها من المهر مثل ما بذل معاوية عن ابنه ٠

فقال : ـ أفعل ان شاء الله ٠

فلما دخل عليها أبو الدرداء قال : ـ أيتها المرأة ، ان الله خلق الأمور بقدرته ، وكونها بعزته ، فجعل لكل أمر قدرا ، ولكل قدر سببا ، فليس لأحد عن قدر الله محيص ، ولا للخروج عن أمره مهرب ، فكان مما سبق لك ، وقدر عليك ، الذى كان من فراق عبد الله بن سلام اياك ، ولعل ذلك لا يضرك ، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ، وقد خطبك أمير هذه الأمة وابن ملكها ، وولى عهده ، والخليفة من بعـده : يزيد بن معاوية ، والحسين ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيد شباب أهل الجنة ، وقد بلغك شأنهما وسناؤهما وفضلهما ، وقد جئتك خاطبا عليك فاختارى أيهما شئت ٠

فسكتت طويلا ثم قالت : ـ يا أبا الدرداء ، لو أن هذا الأمر جاءنى وأنت غائب لاشخصت فيـــه الرسل اليك ، واتبعت فيه رأيك ، ولم أقتطعه دونك ، فأما اذا كنت أنت المرسل ، فقد فوضت أمرى بعد الله اليك ، وجعلته فى يديك ، فاختر لى أرضاهما لديك ، والله شاهد عليك ، فاقض فى أمرى بالتحرى ، ولا يصدنك عن ذلك اتباع هوى ، فليس أمرهما عليك خفيا ، ولا أنت عما طوقتك غبيا ٠

فقال : ـ أيتها المرأة ، انما على اعلامك ، وعليك الاختيار لنفسك ٠

قالت : ـ عفا الله عنك ، انما أنا ابنة أخيك ، ولا غنى لى عنك ٠ فلا تمنعك رهبة أحد عن قول الحق فيما طوقتك ، فقد وجب عليك أداء الأمانة فيما حملتك ، والله خير من روعى وخيف ، انه بنـا خبير لطيف ٠

فلما لم يجد بدا من القول والاشارة ، قال : ـ

أى بنية ـ ان ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الى وأرضى عندى ، والله أعلم بخيرهما لك ٠

قالت : ـ قد اخترته ، وأردته ، ورضيته ٠

فتزوجها الحسين ، وساق لها مهرا عظيما ، فبلغ ذلك معاوية ، فتعاظمه ولام أبا الدرداء لوما شديدا ، وقال : ـ

من يرسل ذا بله وعمى يركب خلاف ما يهوى .

ثم اطرح معاوية عبد الله بن سلام ، وقطع عنه جميع روافده ، لسوء قوله فيه ، وتهمته أنه خدعه ، ولم يزل يجفوه حتى عيل صبره ، وقل ما فى يده .

فرجع الى العراق ، وكان قد استودع زينب قبل طلاقه مالا عظيما ، ودرا كثيرا ، فظن أنها تجحده ، لسوء فعله بها ، وطلاقها من غير شىء كان منها .

فلقى الحسين فسلم عليه ثم قال : ـ

قد علمت ما كان من خبرى وخبر زينب ، وانى قد استودعتها مالا ، ولم أقبضه ـ وأثنى عليها ـ وقال له : ذاكرها أمرى ، واحضضها على رد مالى .

فلما انصرف الحسين اليها ، قال لها : ـ

قد قدم عبد الله بن سلام ، وهو يحسن الثناء عليك ، ويحمل النشر عنك فى حسن صحبتك ، وما آنسه قديما من أمانتك ، فسرنى ذلك وأعجبنى ، وذكر أنه قد استودعك مالا ، فادى اليه أمانته ، وردى عليه ماله ، فانه لم يقل الا صدقا ، ولم يطلب الا حقا .

فقالت : ـ صدق استودعنى مالا لا أدرى ماهو ، فادفعه اليه بطابعه .

فأثنى عليها الحسين خيرا ، وقال : ـ

ألا أدخله اليك حتى تتبرئى اليه منه كما دفعه اليك ؟

ثم لقى عبد الله ، وقال : ـ

ما أنكرت مالك ، وانها زعمت أنه بطابعك . فادخل اليها وتسلم مالك منها .

فقال : ـ أوما تأمر من يدفعه الى ؟

قال : ـ لا ، بل تقبضه منها كما دفعته اليها .

ودخل عليها الحسين وقال : ـ هذا عبد الله قد جاء يطلب وديعته .

فأخرجت اليه البدر ، فوضعتها بين يديه وقالت : ـ هذا مالك .

فشكر وأثنى .

وخرج الحسين عنهما ، وفض عبد الله بن سلام خواتم بدره ، وحثى لها من ذلك ، وقال : خذى فهو قليل منى .

فاستعبرا جميعا حتى علت أصواتهما بالبكاء ـ أسفا على ما ابتليا به ، فدخل الحسين عليهما ، وقد رق لهما ، فقال : ـ

أشهد الله أنى طلقتها . اللهم انك تعلم أنى لم أتزوجها رغبة فى مالها ولا جمالها ، ولكنى أردت احلالها لبعلها .

فسألها عبد الله أن تصرف الى الحسين ما كان قد ساقه اليها من مهر ، فأجابته الى ذلك . فلم يقبله الحسين وقال : ـ

الذى أرجوه من الله خير لى .

فلما انقضت أقراؤها تزوجها عبد الله ، وحرمها الله يزيد بن معاوية .

ـ ٢ ـ

يوم الحســـاب

قال أحد الرواة : ـ

كان فى زمن المهدى رجل صوفى يركب قصبة فى كل جمعة يومين ـ الاثنين والخميس . فاذا ركب فى هذين اليومين فليس لمعلم على صبيانه حكم ولا طاعة ، فيخرج ويخرج معه الرجال والنسا ـ والصبيان .

شاهدته يوما وقد صعد تلا ، فنادى بأعلى صوته : ما فعل النبيون والمرسلون ؟ أليســوا فى أعلى عليين ؟ .

فقالوا : ـ بلى ·

قال : ـ هاتوا أبا بكر الصديق ·

فاخذ غلام فأجلس بين يديه ·

فقال : ـ جزاك الله خيرا أبا بكر عن الرعية ، فقد عدلت وقمت بالقسط ، وخلفت محمدا عليه السلام فى حسن الخلافة ، ووصلت حبل الدين بعد حل وتنازع ، وفرغت منه الى أوثق عروة وأحسن ثقة ، اذهبوا به الى أعلى عليين ·

ثم نادى · هاتوا عمر ·

فأجلس بين يديه غلام ·

فقال : ـ جزاك الله خيرا أبا حفص عن الاسلام ، قد فتحت الفتوح ، ووسعت الفيىء ، وسلكت سنبيل الصالحين ، وعدلت فى الرعية · اذهبوا به الى أعلى عليين بحذاء أبى بكر ·

ثم قال : ـ هاتوا عثمان ·

فأتى بغلام فأجلس بين يديه ·

فقال له : ـ خلطت فى تلك السنين ، ولكن الله تعالى يقول « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم » ثم قال : ـ اذهبوا به الى صاحبيه فى أعلى عليين ·

ثم نادى : ـ هاتوا على بن أبى طالب ·

فأجلس بين يديه غلام ·

فقال له : ـ جزاك الله عن الأمة خيرا أبا الحسن فانت الوصى ، وولى النبى ، بسطت العدل ، وزهدت فى الدنيا ، واعتزلت الفيىء ، فلم تخمش فيه بناب ولا ظفر ، وانت أبو الذرية المباركة ، وزوج الزكية الطاهرة ، اذهبوا به الى أعلى عليين ·

ثم قال : ـ هاتوا معاوية ·

فأجلس بين يديه غلام ·

فقال له : ـ أنت القاتل عمار بن ياسر ، وخزيمة بن ثابت ذا الشهادتين ، وانت الذى جعل الخلافة ملكا ، واستأثر بالفيىء ، وحكم بالهوى ، وبطر بالنعمة ، وأنت أول من غير سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونقض أحكامه ، وقام بالبغى · اذهبوا به فأوقفوه مع الظلمة ·

ثم قال : ـ هاتوا يزيد ·

فأجلس بين يديه غلام ·

فقال له : ـ أنت الذى قتلت أهل الحرة ، وأبحت المدينة ثلاثة أيام ، وانتهكت حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآويت الملحدين ، وبؤت باللعنة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتمثلت بشعر الجاهلية ·

ليت أشياخى ببـدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

وقتلت الحسين ، وحملت بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا على حقائب الابل · اذهبوا به الى الدرك الأسفل من النار ·

ولم يزل يذكر واليا بعد وال حتى بلغ الى عمر بن عبد العزيز فقال : ـ هاتوا عمر ·

فأتى بغلام فأجلس بين يديه ·

فقال : ـ جزاك الله خيرا عن الاسلام ، فقد أحييت العدل بعد موته ، وألنت القلوب القاسية ، وقام بك عمود الدين على ساق بعد شقاق ونفاق · اذهبوا به فألحقوه بالصديقين ·

ثم ذكر من كان بعده من الخلفاء الى أن بلغ دولة بنى العباس ، فسكت ·

فقيل له : ـ هذا أبو العباس أمير المؤمنين ·

قال : ـ فبلغ أمرنا الى بنى العباس · ارفعوا حساب هؤلاء جملة ، والقوا بهم فى النار جميعا ·